حماية البيئة فى الإسلام

للدكتور

مصطفى نصر أبو المكارم شريف

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

بكلية أصول الدين والدعوة - بالزقازيق

من ٥٢٩ إلى ٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور

مصطفى نصر أبو المكارم شريف

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين والدعوة - بالزقازيق

حماية البيئة فى الإسلام

الحمد لله رب العالمين. الذى أحسن كل شئ خلقه. فتبارك الله أحسن الخالقين والصلاة والسلام على سيد الهداة والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فلقد بات موضوع "البيئة" يشغل بال كثير من الناس. وبالأخص المعنيين بشئون البيئة والدول كلها، نظرا للأضرار الناجمة عن التعديات عليها، والتى تنذر بالخطر على الإنسانية جمعاء.

فسوء استغلال موارد البيئة لغرض الكسب المادى والربح السريع والرفاهية الزائدة على حساب الطبيعة، والتقدم الصناعى، وبالأخص فى مجال الصناعات النووية والتسليحية والكيماوية الفتاكة، من أجل الغلبة والسيطرة

على موارد الدول، فضلا عن التجارب النووية، ودفن نقاباتها في الدول الفقيرة، ومخلفات المصانع، وتسرب النفط في البحار والمحيطات، ومياه الصرف الصحي، واستخدام الأسمدة والمبيدات الحشرية، والهرمونات التي توضع على الفاكهة والخضراوات، وحرق الغابات، والصيد الجائر للطيور والحيوانات، وحرق النفايات.

كل هذه الأشياء وغيرها أصبحت تؤدى إلى تلوث البيئة، والخلل في توازنها الطبيعي، وزيادة الانبعاث الحرارى الذى أدى إلى التأثير على طبقة الأوزون التى تحمى الكائنات الحية من أشعة الشمس. بالإضافة إلى انتشار الأمراض الصحية والنفسية.

وبالرغم من كثرة المعاناة على الطبيعة ومقومات الحياة فيها. فمازال الوضع يزداد سوء بعد سوء.

ولا مناص للخروج مما نحن فيه إلا بالمحافظة على البيئة، وإبقائها على فطرتها.

ولا يتم ذلك إلا بالرجوع إلى القيم والمبادئ الإسلامية، التي تحافظ على البيئة، وتوازنها، وكيفية التعامل معها، والضرب على أيدى المفسدين فيها، ومنعهم من الإضرار بها وبالكائنات الحية التى تعيش عليها وذلك بالتعاون مع جميع الدول لدرء هذا الخطر الداهم على الكون بما فيه حتى تؤدى الطبيعة مهمتها التسخيرية دون عائق كما خلقها الله عز وجل فيعيش الإنسان فيها وهو آمن، وكذلك كل من فيها. ويأكل ثمارها وهو مطمئن، ويرتوى من ماءها العذب الزلال.

وبالتالى تظل مقومات الحياة للإنسان طيبة. نظيفة نقيـــة، بطبيعتــها الجميلة التى تسر الناظرين، وتلهم المشاعر والأحاسيس بالشكر للمنعــم جــل وعلاء، وتستنطق اللسان عند التذوق بالحمد والذكر، للذى خلق فسوى وقـــدر فهدى. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وهذا البحث بعون الله تعالى وفضله سيساهم فى إبراز مـــدى أهميــة البيئة الطبيعية للإنسان، ومدى اهتمام الإسلام بها وحمايتها حتى تبقى صالحة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وذلك من خلال الخطوات التالية:

١- **المقدمة:**

(التعريف بمصطلحات البحث–الترابط بين البيئة البشرية والبيئة الطبيعية).

٢- **مظاهر تعديات الإنسان على البيئة.**

٣- **التعديات وأنواعها.**

٤- **آثار التعديات على البيئة.**

٥- **حماية البيئة فى الإسلام**

- تحريم الشرائع للإفساد والإسراف
- أهمية البيئة فى الإسلام
- خصائص البيئة
- الترغيب والترهيب فى حماية البيئة

حماية البيئة فى الإسلام

التمهيد:

تعريف الحماية والبيئة:

يقصد بالحماية فى اللغة: زوال الخوف، ويجعل اسما لما يؤمن عليه الإنسان، قال تعالى: ﴿وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ﴾[١]، أى ما ائتمنتم عليه[٢]. ومما يؤمن عليه الإنسان بيئته التى يعيش فيها بحيث يحصل شعور بالاطمئنان على حمايتها من التلوث والإفساد أو الإهدار.

وفى الاصطلاح: عرفها الجرجانى، بأنها (عدم توقع مكروه فى الزمان الآتى)[٣]. أى حصول الاطمئنان على البيئة ومواردها فى الحاضر والمستقبل.

أما البيئة فى اللغة:

فهى المكان والمنزل. يقال أباءه منزلا أى هيأه له. وأنزله، ومكن له فيه. والاسم البيئة والباءة والمباءة، وتطلق على منزل القوم حيث يتبوءون من قبل وادأو سند جبل، ومنه المباءة معطن الإبل حيث تناخ فى الموارد، أو المراح الذى تبيت فيه[٤].

ويتضح ن هذه المعانى أن البيئة هى المكان الذى يعيش فيه الإنسان والحيوان.

---

[١] سورة الأنفال: آية ٢٧.

[٢] المفردات فى غريب القرآن، للراغب الأصفهانى: ص٢٥، ط دار المعرفة.

[٣] التعريفات: ص٢٧، ط دار الكتب العربية.

[٤] لسان العرب: لابن منظور ٢٨٣/١، طبعة دار المعارف.

البيئة في الاصطلاح:

هي الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان فيتأثر به ويؤثر فيه[1]. ولم تأت كلمة "البيئة" لتعبر عن المكان أو المحيط الذي يعيش فيه الإنسان والحيوان، وينتفع بما فيه، وإنما وردت مشتقاتها في القرآن الكريم في كثير من الآيات فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[6].

---

(1) البيئة والإنسان علاقات ومشكلات: د/ زين الدين عبد المقصود: ص٧، ٨، ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(2) سورة الحج: من الآية ٢٦.

(3) سورة الأعراف: من الآية ٧٤.

(4) سورة آل عمران: من الآية ١٢١.

(5) سورة النحل: من الآية ٤١.

(6) سورة يونس: من الآية ٩٣.

وتفيد هذه الآيات أن كلمة "بوأ" بمعنى تهيأة المكان الصالح والمناسب.

ولهذا يقول الإمام بن كثير: فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أى أرشده إليه وسلمه له وأذن له فى بنائه"[١].

وقد تأتى مشتقات كلمة "البيئة" بمعنى يختلف عن السابق وهو الموضع غير الصالح والحالة الغير مرغوب فيها، كما فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾[٢].

مما سبق يتبين أن القرآن الكريم لم يستخدم كلمة "البيئة" للدلالة على المكان أو المحيط الذى يعيش فيه الإنسان، ولكنه استخدم كلمة -الأرض- بما عليها وما فيها للدلالة على ذلك[٣].

ومما يؤكد ذلك أن الأرض تمثل نظاماً بيئياً متكاملاً، مهيأ وممهد للإنسان وغيره من المخلوقات، بما فيها من عناصر الحياة وعوامل البقاء.

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۞ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾[٤].

---

[١] تفسير القرآن العظيم: جـ٣، ص٢١٥ - مكتبة دار التراث.

[٢] تفسير ابن كثير: جـ١ ص١٠٢.

[٣] التنمية والبيئة - دراسة مقارنة د/ شوقى أحمد دنيا: ص١٣-١٤: دعوة الحق من مطبوعات رابطة العالم الإسلامى: العدد ١٣٧ جمادى الأخرة ١٤١٣هـ.

[٤] سورة الحجر: آية ١٩-٢٠.

وقد أوجز "مؤتمر استوكهولم عام ١٩٧٢م مفهوماً للبيئة يقول: إنها كل ما يحيط بالإنسان[١]، فالبيئة هى السماء والأرض وكل الكائنات الحية من نباتية وحيوانية.

بل إنها (كل ما تخبرنا به حواسنا سواء كان من صنع الإنسان أو من علم الطبيعة)[٢].

وإذا كان مؤتمر استوكهلوم قد وسع مفهوم البيئة بكل ما يحيط بالإنسان، وكل ما يصنعه الإنسان من أشياء كالفلك التى تجرى فى البحر بأمر الله إلا أن هذا ليس من عمل الطبيعة وإنما تعمله وتؤديه بأمر الله عز وجل وإرادته، والإنسان إما أن يستخدم هذه الأشياء ويوجهها إلى ما ينفعه وينفع الناس، أو ما يضره ويضر الآخرين.

---

(١) البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث: محمد الفقي: ص١٠، طبعة مكتبة ابن سينا.

(٢) البيئة والإنسان: زين الدين عبد المقصود: ص٧-٨، مرجع سابق.

الترابط

بين البيئة البشرية والبيئة الطبيعية

يفرق علماء البيئة بين البيئة الطبيعية والبيئة البشرية من حيث التكليف وعدمه، أى من حيث الإرادة واللا إرادة، فالبيئة الطبيعية عندهم (تشمل كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر وأشياء حية وغير حية، ولا يكون له دخل في وجودها، كالمناخ والتضاريس والضوء والتربة والمعادن فى باطن الأرض، والنباتات الطبيعية والحيوانات. أما البيئة البشرية وتسمى أيضاً البيئة الحضارية، فتشمل الإنسان وكل إنجازاته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التى أوجدها داخل بيئته الطبيعية)[1].

والإنسان بطبيعة الحال يتأثر ويؤثر بما يحيط به، فلا تتم إنجازاته إلا بالتعامل مع ما يحيط به مما سخره الله له، كما أن مقومات الحياة للإنسان لا تتم إلا عن طريق البيئة التى تحيط به أينما وجد، فهو يتغذى عليها، بل إنه خلق منها كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[2]. كما أن الإنسان يخضع خضوعاً طبيعياً كسائرُ الكائنات وهو خضوع العبودية العامة.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[3].

وهذا السجود (هو سجود الذل والقهر والخضوع، فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه تعالى)[4].

---

[1] البيئة والإنسان: ص٧-٨.

[2] سورة الروم: آية ٢٠.

[3] سورة النحل: آية ٤٩.

[4] مدارج السالكين: ابن القيم الجوزية، جـ١ ص١٠٣، تحقيق رضوان جامع رضوان - المكتب الثقافى للنشر والتوزيع

وهذا الخضوع هو (خضوع العبودية العامة ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[1])[2].

إذاً الإنسان ينتمى إلى البيئة الطبيعية من ناحية الجسد فهو مخلوق من مخلوقات الله تعالى إلا أن الحق سبحانه وتعالى ميزه عن سائر الكائنات وفضله عليها بما وهبه من عقل يملك القدرة على الاختيار والترجيح فقال تعالى مشيراً إلى هذا التكريم، والتفضيل "ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير عن خلقنا تفضيلا"[3].

وبهذا التفضيل والتكريم تحمل الأمانة مع ضعفه بالنسبة لمخلوقات الله الأخرى فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[4].

والأمانة هى "التكاليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب"[5].

كما "إنها الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة.. هى هى ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله، وهى هى مناط التكريم الذى أعلنه الله فى الملأ الأعلى، وهو بسجد الملائكة لآدم، وأعلنه فى قرآنه الباقى وهو يقول

---

(1) سورة الرعد: آية ١٥.

(2) الدين: د/ محمد عبد الله دراز ص٤٩، نشر دار القلم – الكويت.

(3) سورة الإسراء: آية ٧٠.

(4) سورة الأحزاب: آية ٧٢.

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٣ ص٥٢٢ – دار التراث.

﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾. فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله، ولينهض بالأمانة التى اختارها"(١).

ولكي ينهض الإنسان بحمل هذه التبعة فلم يتركه وعقله بل أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق، حتى لا يضل الإنسان ويتبع هواه.

ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٢).

فقوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ أى بالمعجزات والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات. "وأنزلنا معهم الكتاب" وهو النقل الصدق "والميزان" وهو العدل... وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة"(٣).

"ويمدح الله سبحانه وتعالى كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن بأنه يهدى لأقوم الطرق وأوضح السبل ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجر كبير..."(٤).

---

(١) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب جـ٥ ص٢٨٨٥، ط ١٦، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار الشروق.

(٢) سورة الحديد: آية ٢٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير جـ٣ ص٣١٤.

(٤) المرجع السابق جـ٣ ص٢٦.

ومن أعرض عما جاء به الحق سبحانه وتعالى على لسان نبيه ﷺ وما بينه رسول الله ﷺ، فإنه يعيش فى ضنك وحيرة وقلق بسبب إعراضه والتماس الهدى فى غيره على حسب زعمه.

فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(١).

ومعنى هذه الآية "أى خالف أمرى وما أنزلته على رسولى، أعرضه عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه "فإن له معيشة ضنكاً" فى الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه حالم يخلص إلى اليقين والهدى فهو فى قلق وحيرة وشك فلا يزال فى ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة"(٢).

وها نحن نرى ما عليه الناس الآن من مظاهر التقدم والرقى الاجتماعى فانهم مع ذلك يشكون من تلوث البيئة، وتدمير للكائنات الحية، وانتشار الكثير من الأمراض الناتجة عن استخدام المبيدات، وصنع الأسلحة الفتاكة، ودفن النفايات الضارة فى الأرض أو رميها فى البحار والأنهار والانبعاث الحرارى الناتج عن المصانع وحركات الطائرات، وإشعال الحرائق فى الغابات، الذى يؤدى بدوره إلى تناقص "الأوزون" الذى يحمى الكائنات الحية بما فى ذلك الإنسان، من نفاذ الأشعة فوق البنفسجية إلى الأرض، والتى

---

(١) سورة طه: آية ١٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير جـ٣، ص١٦٨.

لو نفذت إلى الأرض لأدت إلى هلاك الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان.

وهذا كله وغيره يكشف لنا عن تفاقم الأخطار التى يمكن أن تحدث للبيئة نتيجة لتدخل الإنسان بطريقة مسرفة غير راشدة مما يؤدى إلى الخلل فى البيئة، لولا لطف الله عز وجل ورحمته.

وأيضاً باتباع الإنسان لهواه، وحبه للسيطرة والغلبة، وهذا مما يؤدى إلى الفساد كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

تعديات الإنسان على البيئة فى العصر الحاضر:

شهد العصر الحاضر ثورة علمية هائلة أحدثت تغييرات فى أنماط السلوك الإنساني فى مجالات الإنتاج والاستهلاك، وخصوصاً بعد التوسع العمراني والتطور الهائل فى التقنيات الصناعية وفى وسائل النقل وما نتج عن ذلك من تولد مشكلات الصرف الصحى وتزايد مخلفات المصانع وانبعاث الأبخرة والغازات السامة فى الهواء الجوى، بالإضافة إلى الجو، إلى قطع أشجار الغابات وإزالة مساحات واسعة من الغابات الطبيعية، للوصول إلى مستوى أعلى فى المعيشة، وتحقيق قدر أكبر من الرفاهية والدخل المادى الكثير فى أسرع وقت ممكن.

ومع التقدم العلمى ومعرفة القوانين الكونية، فقد استخدم هذه المعرفة فى تدمير البيئة وإفسادها، حتى وصل الأمر إلى إضرار المجتمع الإنسانى، ومما يؤكد ذلك ما نراه من مظاهر التعديات فى مجال:

---

[1] سورة المؤمنون: آية ٧١.

التقدم الزراعى فإن استخدام الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية على نطاق واسع يضاعف من المحاصيل الزراعية ومن ثم تتضاعف أرباح الزارعين، ولكنه يعرف أيضاً أن هذه المدخلات (أى عناصر الإنتاج) السامة تتسرب إلى التربة وتتركز فى المحاصيل الزراعية لتنتقل إلى الإنسان الذى يستهلكها فتصيبه بالأمراض الخطيرة، ومع ذلك -أو على الرغم من ذلك- فمازالت الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية تستخدم فى الزراعة على نطاق واسع.

فقد ورد فى تقرير لجنة الخبراء التى تولت التحضير لمؤتمر الأمم المتحدة عن البيئة الإنسانية، والذى يعرف بتقرير "فونيكس" عن التنمية والبيئة ١٩٧١م، من اتجاهه نحو الاكتفاء الذاتى، ولذلك فإن الزراعة الحديثة تستهدف الحصول على أكبر ناتج ممكن، عن طريق تكثيف استخدام المدخلات من الطاقة أو المركبات الكيماوية كالأسمدة ومبيدات الحشائش والحشرات والتى تنجم عنها أخطار بيئية عديدة كتلوث التربة والمياه والأغذية لدرجة قد تصل إلى تسمم النباتات والحيوانات بل والإنسان ذاته[١]، فهذه المدخلات أدت إلى انتشار الفساد فى مجالات كثيرة وقد نهى الإسلام عن الفساد.

ومن تعديات الإنسان على البيئة والتى أدت إلى تصحر الأرض الرعى الجائر "فزيادة أعداد الحيوانات فى المرعى فى منطقة معينة يؤدى إلى زوال الأنواع النباتية المرغوب فيها لتحل محلها أنواع نباتية أخرى غير

---

(١) المشاكل البيئية المصاحبة لمشروعات وخطط التنمية الزراعية، مع إشارة خاصة لمشكلة التضخم، بحث مقدم من الدكتور/ محمد عاطف كشك إلى المؤتمر العلمى الخاص للاقتصاديين المصريين تحت رعاية الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع فى الفترة ما بين ٢٧-٢٩ مارس ١٩٨٠م.

مرغوب فيها من بينها الأنواع السامة والشائكة، ويرافق عمليات الرى الجائر. قطع الأشجار والشجيرات التي يستعملها الرعاة في التدفئة وطهي الطعام، وبذلك تتعرى التربة من الغطاء النباتي وتصبح أكثر تعرضاً لعوامل الانحراف المائي في فترات الرطوبة، والانحراف الرياحي في فترات الجفاف.

وهكذا يتسبب الإنسان بجهله أو برعونته في تحول المراعى الخصبة وهي من النعم التي لا تعد ولا تحصى والتي أنعم الله بها عليه -إلى أرض جرداء لا زرع فيها ولا ماء"[1].

لقد كانت قدرة الإنسان على إحداث تغييرات في البيئة في أول عهده بالزراعة ضئيلاً، وذلك بالنسبة لأدوات الزراعة التقليدية بالإضافة إلى أن الإنسان كان يتعب ويكدح في الزراعة ويتعهدها بالعناية والرعاية للحصول على حاجاته الضرورية من المآكل والكساء والمأوى فلما تحولت الزراعة التقليدية إلى الزراعة الحديثة واستخدام الآلات الزراعية، والمبيدات القاتلة للحشائش. أصبح الإنسان باستطاعته أن يزرع الأرض دون أن تكون هناك فترة راحة للأرض مع الاستعانة بالمبيدات والأسمدة بمختلف أنواعها مع عدم استخدام الأسمدة العضوية. أو اقتلاع الحشائش بالطرق الأولى في اقتلاعها، واصبح الزارع لا يجهد نفسه. مستخدماً بذلك التقنيات الحديثة، بالإضافة إلى استخدام الهرمونات التي توضع على الثمار والنباتات ليزداد حجمها أو احمرارها أو سرعة نموها باستخدام تكنولوجيا الهندسة الوراثية.

---

(1) التلوث وحماية البيئة د/ محمد عبده العودات، د/ عبد الله يحيى باصهى: ص٢٧٥-٢٧٦ عمادة شئون المكتبات جامعة الملك سعود – الرياض ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

ففى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى -بعد الثورة التقنية "التكنولوجية" التى أعقبت الثورة الصناعية- ترتب على ذلك تكثيف الزراعة بعمليات التوسع الرأسى والتى استلزمت زيادة كبيرة فى المدخلات خاصة الطاقة والمركبات الكيماوية كالأسمدة والمبيدات الحشرية، وهذه المركبات ينتج عنها أخطار بيئية عديدة مثل تلوث التربة والماء والمحاصيل الزراعية مما يسبب تسمم الكائنات الحيه والقضاء على الأعداد الطبيعيين للآفات الزراعية، التى تكتسب بذلك مناعة متزايدة ضد المركبات الكيماوية.

وفضلا عن ذلك تؤدى أساليب الزراعة المكثفة -أى المتوالية التى لا تعطى للأرض فرصة للراحة- إلى تدهور التربة، واستنزاف مواردها وتحولها فى النهاية إلى أرض جرداء قاحلة غير قادرة على الإنبات أو الزرع. كما أن هناك بعض الآثار الجانبيه الضارة مثل ارتفاع مستوى الماء الأرضى وتراكم الأملاح بالتربة وانجرافها وانتشار البلهارسيا والملاريا المصاحبة للرى المستديم"[1].

ولخطورة الأمر وقسوته على البيئة وما يعيش عليها فقد استحدث علم جديد لوضع حل لهذه الكوارث فقد شهد عام ١٩٧٧م مولد علم جديد للصحراء هو "علم الصحراء" على أثر كارثة الجفاف التى اجتاحت الساحل الإفريقى فى الفترة ما بين ١٩٦٨/، ١٩٧٣، وراح ضحيتها ملايين من البشر والحيوانات بسبب الأوبئة والمجاعات وتحول مساحات واسعة من الأرض الخضراء المنتجة إلى صحراء قاحلة"[2]، وعلى هذا لم تتسع الرقعة الزراعية، بل

---

[1] المشكل البيئية المصاحبة لمشروعات وخطط التنمية الزراعية - مرجع سابق

[2] المرجع السابق

تقلصت، ولم يحقق التقدم العلمى بتطلعاته المادية الغير مضبوطة إلا بمزيد من الفساد والدمار.

تلوث الماء:

هناك أسباب كثيرة أدت إلى تلوث الماء مثل إلقاء مياه الصرف الصحى فى الترع والأنهار، رمى القمامة والنفايات والنافق من الحيوانات والطيور فى المياه، كما أن المياه تتلوث بسبب (ما تقذف به المصانع من نفايات ومياه صناعية، فضلاً عن المخلفات البشرية التى تتزايد كميتها عاماً بعد آخر الأمر الذى أفقد كثيراً من الأنهار والبحيرات قدرتها الطبيعية على التنقية الذاتية، فنهر الداين وهو أكبر أنهار أوربا قد تلوثت مياهه بدرجة بالغة الخطورة لهذه الأسباب)[1].

كما تتلوث مياه البحار والمحيطات لتسرب النفط من الناقلات بسبب الحوادث او الانفجارات.

كما أن إقامة المشروعات والمصانع بالقرب من المجارى المائية والتى تقذف فيها المياه على درجة حرارة عالية الأمر الذى يغير من الطبيعة العادية لهده المياه التى خلقها الله عليها.

لقد جعل الله -جلت قدرته- للماء فى المجارى المائية درجة حرارة منخفضة (بالقدر) الذى يجعل الماء قادراً على الاحتفاظ (بقدر) من الغازات اللازمة لحياة الكائنات الحية المائية، ولكن المياه التى تقذفها المصانع ومحطات توليد الكهرباء، ترفع درجة الحرارة عن (القدر) الطبيعى فتقل

(١) البيئة، ص٤٠.

الغزات في الماء، ومن بينها الأكسجين اللازم لاستمرار الحياة للكائنات المائية، وهكذا يحدث ما يسمى بالتلوث الحراري[1]

وبارتفاع الحرارة عن القدر الطبيعي يؤثر أيضاً على النباتات التي تتغذى عليها الأسماك وغيرها، مما يؤدي إلى موت الكائنات الحية أو هجرتها من هذه المنطقة، ولو استجاب المسلمون بالذات إلى تعاليم ﷺ ، لما وصل الأمر إلى تلك الخطورة فقد قال ﷺ "اتقوا الملاعن الثلاث البراز في الموارد، وقارعة الطريق والظل"[2].وهذا يدل على أن الإسلام دين التقدم والرقي.

تلوث الهواء:

إن الهواء لا غنى عنه لكل كائن حي، فقد يستغني الإنسان عن الطعام والشراب فترة ما إلا الهواء فلا يستطيع الكائن الحي أن يستغني عنه لحظات ولعل أكثر الملوثات انتشاراً وتأثيراً هو احتراق وقود السيارات ووسائل النقل الأخرى، فقد تصل (كمية الغازات الملوثة للبيئة والتي تطلقها وسائل النقل في الهواء إلى حوالي٦٠% من إجمالي كمية الغازات الملوثة للهواء، وتسهم محطات توليد الكهرباء، ووسائل التدفئة إسهاما كبيراً في تلوث الهواء بالغازات والمواد الضارة، كما تسهم الصناعة في إنتاج ملوثات الهواء، فصناعة النفط تطلق أكاسيد الكبريت والنيتروجين والنوشادر وأول أكسيد الكربون وكبريتيد الهيدروجين، وتنفث الألومينيوم والأسمدة الفوسفاتية غاز فلور الهيدروجين، وغيره من مركبات الفلور، وتكثر أكاسيد الحديد في

---

[1] المرجع السابق. ص١٤٥ وما بعدها

[2] صحيح مسلم: ك الطهارة ب: النهي عن التخلي في الطريق والظلال.

المناطق التى توجد فيها صناعة الحديد والصلب -مثل منطقة حلوان، ويترسب الغبار وجميع أشكال الجزئيات -المواد الصلبة والسائلة المعلقة فى الهواء والملوثة له كالغبار والدخان والضباب والهباب والرصاص -الصلبة الأخرى الناتجة عن الأنشطة الصناعية فى التجمعات السكانية"[1].

وهذه الأكاسيد كلها الناشئة عن المخلفات الصناعية، والبشرية تمتد اضرارها إلى الإنسان والحيوان والنباتات.

وتوضيحاً لذلك:

يعتبر أول أكسيد الكربون - وهو من مخلفات ونفايات الصناعة - من اخرط ملوثات الهواء، وينتج من الاحتراق الكامل للوقود، وكذلك فإن ثانى اكسيد الكبريت لا يقل خطورة عن أول أكسيد الكربون، ولا تقتصر أضراره البيئيه على الإنسان والحيوان فحسب وإنما تمتد لتشمل النبات أيضاً.

وينتج كبريتيد الهيدروجين من تخمّر المخلفات البشرية السائلة ومن الصناعات الجلدية، وتكرير البترول، وصناعة المطاط، وتفوق سُمِّية هذا العار سمِّية أول أكسيد الكربون. ويعتبر الزئبق -الذى يوجد فى صورة ابخره من أخطر الملوثات للهواء، وكذلك الرصاص الذى يخرج من عوادم السيارات على شكل جزيئات محملة بأملاح الرصاص المختلفة ويعتبر ملوثاً هوائيا خطراً له تأثيرات ضارة على الكائنات الحية"[2].

---

[1] التلوث وحماية البيئة: ص٢٦ وما بعدها - مرجع سابق.

[2] التلوث وحمايه لبيه ص٣١

والإسلام يحرص كل الحرص على منع الأذى ومسببته أياً كانت فقال ﷺ "من أذى المسلمين فى طرقهم وجبت عليه لعنتهم"[1]. وقال -صلى الله عليه وسلم- "من غسل سخيمته على طريق من طرق المسلمين فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"[2]، لأن الإسلام ينظر إلى المسلم على أنه مؤتمن على ما فى الكون.

وإذا كان الإنسان يحتاج إلى التنفس عن طريق المشهين لدخول الأكسجين، كما يحتاج طرد ثانى أكسيد الكربون عن طريق الزفير فهل فى هذا ضرر أو خطورة فى طرد ثانى أكسيد الكربون فى الجو عن طريق الزفير؟

"إن نسبة هذا الغاز فى الهواء الجوى حوالى ٣% وهى نسبة لا تشكل خطورة على الإنسان أو الحيوان، ولكن اندفاع الإنسان فى استهلاك الطاقة (بترول، وفحم حجرى، وغاز طبيعى) يؤدى إلى ارتفاع نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الهواء الجوى، ويشكل عندئذ خطورة على الإنسان والحيوان)[3].

وهذا يدل على تقدير الحق سبحانه وتعالى لما خلقه وقدره. فقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[4] فسبحانه من خالق قادر

كما أن الدراسات الحديثة تشير إلى أن زيادة هذا الغاز عن النسبة الطبيعية فى الجو يؤدى إلى تغير فى مناخ الكرة الأرضية ويرجع دلك إلى أر

---

(١) رواه الإمام السيوطى فى الجامع الصغير، وحسّنه - جـ٢ ص١٥٨.

(٢) السنن الكبرى: للبيهقى: كتاب الطهارة: باب التخلى فى الناس، جـ١ ص١٥٨، ١٥٩

(٣) التلوث وحماية البيئة: ص٣١

(٤) سورة القمر: آية ٤٩.

(جزيئات ثنى أكسيد الكربون تتميز بقدرتها العالية على امتصاص الأشعة تحت الحمراء المشتقة للحرارة الزائدة الصادرة من سطح الأرض، ومعنى ذلك تزايد درجات الحرارة فى الغلاف الجوى، الأمر الذى قد يؤدى إلى انصهار الحليد الموجود فى قطبى الأرض، وحدوث كارثة بيئية تنغمر بسببها القاره الأوروبيه او معظمها تحت سطح البحر[1].

(وليس هذا الكلام مجرد استنتاج نظرى، فقد ظهرت بوادر هذه كارثة في السبعينيات من القرن الميلادى الحالى، إذ أشارت قياسات المعدل الحرارى إلى احتمال حدوث عصر اختناق حرارى)[2].

إذا ليس غار ثانى أكسيد الكربون بذاته وبطبيعته فى الجو ليس ملوثاً ولا يشكل خطورة، وإنما التزايد فى معدلات تركيزه بفعل الإنسان هو الذى أدى إلى التلوث وإلى وجود خلل فى التوازن البيئى.

كما أن وجود غاز الأوزون فى الغلاف الجوى فى الطبقات العليا من الهواء المحيط بالأرض، تمنع من نفاذ الأشعة فوق البنفسجية قصيرة الموجة إلى سطح الأرض ومن المواد التى تجعل بإزالة الأوزون -أى نفاذ الأشعة فوق البنفسجية إلى الأرض- بخار الماء، وأكاسيد النيتروجين التى تطلقها الطائرات النفاثة، أو تتخلف عن التفجيرات النووية[3].

---

[1] التلوث الصناعى: د/ لطيف حميد على: ص١١-١٢، المصادر: كيمياء التلوث - طرق السيطرة.

[2] المصدر السابق: ص١٢.

[3] التلوث وحماية البيئة: ص٦٧

كما أن (وجود غاز الأوزون فى الطبقات العليا من الهواء المحيط بالأرض "طبقة ستراتوسفير" أمر ضرورى لحماية الأرض من نفاذ الأشعة فوق البنفسجية التى تهلك الحرث والنسل، ومع ذلك فإن هذا الغاز نفسه يضر بالإنسان إذا وجد فى طبقات الجو السفلى (منطقة تروبوسفير) أى فى مجال حياة الإنسان، فالأوزون يؤثر على الجهاز التنفسى للإنسان تأثيرات ضارة، وكذلك يؤثر سلبياً فى النباتات وهو المسئول عن ظهور البقع على أوراق نباتات البطاطس والقمح والعنب والبرسيم، كما يؤثر على الأصباغ)[1].

وبالرغم من ظهور هذه الأضرار واستفحالها فإن بعض الدول الصناعية والتى تساهم بقدر أكبر فى حدوث هذه الأضرار تمتنع عن الحد من انتشار مثل هذه الأضرار وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية.

الإبادة الجماعية وبالذات للشعوب الإسلامية:

إن التقدم العلمى الهائل فى العصر الحديث وبالذات من الشعوب المتقدمة فى صناعة الأسلحة الفتاكة وما ينتج عنه من عمليات الإبادة كما حدث فى الشيشان، والبوسنة والهرسك وكشمير والصومال وأفغانستان، والعراق، والحروب المستمرة فى السودان وما نتج عنها فى تهجير للسكان، له آثار بيئية خطيرة، لن تقتصر على المناطق التى يجرى تدميرها، وإنما تمتد آثارها لتشمل المعتدين أنفسهم لأنها تحدث تهديداً مباشراً لتوازن الأرض بأكملها، فقتل الملايين من البشر، واستخدام أبشع أنواع الأسلحة الفتاكة والملوثة، وما ينتج عن ذلك من تعرية الأرض من الغطاء النباتى وهلاك

---

(1) البيئة والإنسان: ص١٠٤.

أعداد وأنواع كثيرة من الحيوانات والطيور، وما يعتريها من تأثير على الأرض مما يؤثر على البيئة ومن فيها.

وكل ذلك من سلبيات العالم الصناعى المتقدم تقنياً، بتأثير الفلسفة والنزعات المادية، التى تدفع بالإنسان إلى الاندفاع فى إشباع أقصى ما يستطيع من رغباته وإلى الإغراق فى الشهوات.

ولهذا (حملت وكالة الأمم المتحدة للبيئة الأقلية الغنية فى شمال وغرب العالم -وهى دول غرب أوربا والولايات المتحدة الأمريكية- المسئولية عن مشكلة التلوث المعاصرة، فهذه الدول تسبب أضراراً بيئية تمثل ما يقرب من ثلثى الدمار البيئى العالمى.

وعلى سبيل المثال فإن تأثير ما يستهلكه الطفل الأمريكى على البيئة يبلغ حوالى ثلاثين مرة تأثير ما يستهلكه الطفل فى الهند، كما أن متوسط استهلاك الفرد من الطاقة فى الولايات المتحدة ودول غرب أوربا يبلغ أضعاف استهلاك الفرد فى اليابان أو المكسيك، ويستهلك الشخص الأمريكى من الطاقة ما يزيد على مائتى ضعف استهلاك الفرد فى تنزانيا[١].

كما أن المجتمعات النامية تعانى من مشكلات بيئية لعدم توفر الغذاء المناسب، والإسكان الصحى والصرف الصحى. والمياه الصالحة للشرب.

والفقر الذى تعانى منه معظم الشعوب فى العالم المعاصر إنما هو ناتج من سيطرة العالم المتقدم صناعياً، والذى استطاع أن يحكم هيمنته على،

---

[١] الأبعاد البيئية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية: د/ محمد عاطف كشك. من المؤتمر العالمى السنوى الرابع للاقتصاديين المصريين. تحت رعاية الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع من ٣-٥ مايو ١٩٧٩م.

اقتصاديات تلك الشعوب، ونجح فى استنزاف مواردها بأساليب مخططة ومنظمة.

(وهى الآن فى أشد الحاجة إلى التنمية الاقتصادية للخروج من دائرة التخلف، والإفلات من براثن الفقر والتبعية، وأيضاً للتخلص من تلوث الفقر، الذى تعانى منه الغالبية العظمى من شعوبها، والذى يتمثل فى نقص الغذاء الصحى والمسكن الصحى وعدم توفر مياه الشرب النقية، والصرف الصحى، والمستوى المتدنى للخدمات الأساسية)[١].

تلوث الأصوات:

لقد أدت إفرازات الحضارة المادية إلى تلوث الصوت، بسبب المصادر الملوثة له من ضوضاء، وأصوات صاخبة، ومنفرة ومزعجة وهذا هو (الذى جذب انتباه علماء البيئة بعد انتشار المصانع الضخمة بما تحدثه آلاتها من ضجيج، وكثرة الطائرات النفاثة، وسيارات النقل والدرجات النارية وما تسببه من أصوات مزعجة، فضلاً عن الانزعاج المستمر بسبب ما ينبعث من أصوات أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية وأدوات التنظيف، وأجهزة التكييف.... وليت الأمر قد اقتصر على هذه المصادر الملوثة للصوت، فهناك أيضاً المشروعات العامة بما تقوم به من عمليات حفر فى الطرقات داخل المناطق السكنية مستخدمة فى ذلك أجهزة وأدوات آلية (ميكانيكية) تصدر ضوضاء وأصواتاً منفرة، أقل ما تسببه للإنسان هو التوتر والقلق والاضطرابات النفسية والعصبية)[٢].

---

(١) الأبعاد البيئية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية: مرجع سابق.

(٢) التلوث وحماية البيئة: ص٨٥،٩٣.

هذا بالإضافة إلى الموسيقى الصاخبة المنتشرة فى الشوارع والمحلات والبيوت، وكلها أشد وأنكى من صوت الحمير.

وبهذه التعديات على البيئة فى كل مواردها الطبيعية، بسبب التقدم العلمي، واتساع رغبات الإنسان من أجل المتعة واللذة وزيادة الأرباح، وقلة الوعى البيئى عند كثير من الأفراد والمجتمعات وعدم الاحتراز من الآثار السلبية للتقنيات الحديثة، وانحراف الإنسان فى سلوكه بالإسراف فى الإنفاق المادة والاستهلاك الترفيهى فيهدر فى موارد البيئة، ويسئ استخدامها، بالإضافة إلى قصور التنظيمات والقوانين الوضعية لعدم اهتمامها بحماية البيئة والبعد عن تعاليم الإسلام السامية التى تهدف إلى الخير والنفع العام، مما أدى إلى تعرض الإنسان فى الدول المتقدمة والنامية إلى آثار شديدة الخطورة، نسأل الله أن يعافينا منها

آثار التعديات على البيئة:

لقد أدت التعديات على البيئة إلى إصابة الإنسان والكائنات الحية بكثير من الأمراض مما يؤثر على نشاطها، وأداء مهمتها بالإضافة إلى ظهور أمراض لم تكن موجودة قبل التقدم العلمي والسبب فى ذلك هو الإنسان، وقد عادت عليه آثار هذه التعديات على الطبيعة التى سخرها الله عز وجل له.

ومن آثار هذه التعديات:

الأمراض الصحية والنفسية:

فالعالم من حلونا يعيش على أرض واحدة، وتظله سماء واحدة، ويحيط به غلاف جوى واحد، وكل ما يتأثر به فى أى منطقة إنما يؤثر على الآخرين.

والجو الآن يزدحم بكثير من المؤثرات التى تؤثر على الإنسان من الناحية الصحية والنفسية ومما يدل على ذلك "إن الجو يزدحم من حولنا بالموجات الدقيقة (MICRO WOVES) المستخدمة فى الاتصالات الهاتفية، وينتشر الضوضاء واللاسلكى أو التلوث الكهرومغناطيسى بسبب وجود محطات المذياع والتلفاز وشبكات الضغط العالى لنقل الكهرباء، وهذه الموجات تتداخل مع الجهاز العصبى فى الإنسان فتصيبه بالأرق والإجهاد والصداع، وتؤثر سلبياً فى قدرته على الإنتاج، كما دلت الدراسات أنها تسبب لحيوانات التجارب أمراضاً بالدم وخللاً بالهرمونات واضطرابات بالجهاز العصبى. أما الضوضاء أو تلوث الصوت فإنه يصيب الإنسان بالأرق والإجهاد والصمم الجزئى أو الكلى فضلاً عن الأمراض العصبية التى تؤثر فى قشرة المخ وتؤدى إلى نقص فى الحيوية والنشاط وبالتالى تضعف من القدرة الإنتاجية للإنسان.

ويذهب العلماء والخبراء إلى أن أمرض القلب وتصلب الشرايين - وهما من أمراض العصر- تكمن أسبابها بالدرجة الأولى فى شدة الضوضاء،

التى تصيب الإنسان أيضاً بالتوترات النفسية وأمراض ضغط الدم واضطرابات التنفس"[١].

كما أن الهواء الملوث الآن أصبح مصدراً لكثير من الأمراض الخطيرة التى تصيب الجهاز التنفسى والقلب، وقد أدت إلى وقع كوارث للسكان فى بعض الأماكن القريبة من مسبباتها.

فقد وقعت كارثة فى (وادى - الميز - فى بلجيكا عام ١٩٣٠م، حيث تتركز مصانع الفوسفات، فقد أصيب الناس بنوبات حادة من السعال وضيق التنفس، وراح كثيرون ضحية نتيجة هذه الكارثة فضلاً عن هلاك الماشية والدواجن.

كما وقعت كارثة مماثلة فى لوس أنجلوس بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٨م، وتكررت بعد ذلك فى عام ١٩٦٥م، ١٩٧٥م، وفى عام ١٩٥٢م أصيب بضعة آلاف من السكان فى لندن بأمراض قاتلة فى الجهاز التنفسى ومات حوالى أربعة آلاف شخص فى هذه الكارثة التى كانت تعتبر من أسوأ الكوارث فى تاريخ التلوث الهوائى.

وتتمثل أخطار اختفاء الأوزون من طبقة (الأوزونسفير) فى زيادة الأشعة فوق البنفسجية التى تصل إلى الأرض وتلحق أفدح الأضرار بالإنسان والحيوان والنبات. من ذلك مثلاً السرطانات الجلدية وإعتام عدسة العين[٢].

وقد وصل الأمر إلى خطورة هذه الأمراض إلى أن الإنسان لا يشعر بها إلا بعد إنهاكها للجسم.

---

[١] البيئة والإنسان: ص١٢٩.

[٢] التلوث وحماية البيئة: مرجع سابق ص٧٠

(وتتضاعف خطورة تلك الأشعة إذا علمنا أن الجسم المتلقي لها لا يشعر بها وبالتالي لا يكون في مقدور الإنسان اكتشاف المرض في مراحله الأولى. وثمة خطورة أخرى للأشعة فوق البنفسجية. فهي تحدث تغييراً في التركيب الكيماوي للمادة المورثة مع ما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة من الناحية الوراثية)[1].

كما أن الماء وهو العنصر الرئيسي للحياة كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وهو ينزل من السماء طاهراً صالحاً للاستخدام في كل الأغراض التي تعتمد عليه ولا غنى لها عنه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُوراً ۞ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[3].

أصبح الماء الآن ملوثاً حال نزوله حاملاً لكميات كبيرة من الغازات الضارة وحال استقراره في الأنهار والبحار والمسطحات المائية بما يختلط به من نفايات ومخلفات فيها من السموم والميكروبات، والمواد الكيماوية التي تؤدي إلى ضرر خطير على التربة والنبات والحيوانات والإنسان وهو المصدر الرئيسي والمسئول عن كل ذلك لسوء استخدامه وجشعه.

(فالأحواض النهرية والمسطحات البحرية تتعرض للتلوث نتيجة تسرب الكثير من الموارد الكيماوية الضارة والناتجة عن تكثيف استخدام

---

[1] التلوث وحماية البيئة: المرجع السابق: نفس الصفحة.

[2] سورة الأنبياء: من الآية ٣٠.

[3] سورة الفرقان: الآيتان: ٤٨، ٤٩.

الأسمده والمبيدات الحشرية بهدف زيادة الإنتاج الزراعـــي، ويحــدث هــذا التسرب عن طريق صرف مياه الحقول والمزارع نحو الأنـــهار وشــواطئ البحار وقد أدى تلوث مياه البحار والمحيطات بسبب النفايـــات والمخلفــات الصناعيه وما تحتويه من مواد سامة كالزئبق والرصاص إلى انتقـــال هــذه السمبات عبر السلسلة الغذائية إلى الطافيات النباتية والعوالق والطحالب التـــي تتغذى عليها الحيوانات المائية حيث تتراكم في أنسجتها وتتركز إلـــى درجــة تسمم الإنسان الذي يتناول هذه الحيوانات في غذائه.

كما أصبحت المياه في الأنهار والبحيرات في كثير من المناطق. غـير صالحة للشرب أو للزراعة. فمياه الأمطار تحمل كميات كبيرة من الغـــازات الضارة العالقة في الغلاف الجوي. وقد تبين أن مياه الأمطار فـــي مســاحات كبيرة من أوربا وشمال شرق الولايات المتحدة أصبحت مختلطـــة بأحمــاص النيتريك والكبريت)[1].

ومن اوضح الأمثلة على خطورة تلوث الماء وضرره على الإنســان، هو (ما حدث لبحيرة (إيرى) بالولايات المتحدة الأمريكية، إذ تحولـــت إلـــى مستنقع راكد تمما، وكذلك بحيرة (ميتشيجان). وفي أوربـــا بحــر البلطيــق ومعظم الأنهار الكبرى مثل التايمز والداين كـــل هــذه الأنـــهار والبحــار والبحيرات تعاني من أخطار التلوث التـــي تصيــب الإنســان فـــي النهايــة بالأمراض الفتاكة، والتي انتقلت بواسطة المياه إلى التربة مع استخدام الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية ثم انتقلت إلى المحاصيل الزراعية التي يستهلكها الإنسان، كالحبوب والبقول والفاكهة وتحمل الإنسان الكثـــير مـــن المعانـــاة

---

[1] البيئه والإنسان. ص١٣١.

الصحية إذ أصابته بأمراض الكبد والمعدة والأورام الخبيثة)[1]. هذا بالنسبة للأمراض الصحية والنفسية نتيجة التعديات السيئة على البيئة الطبيعية.

الآثار الاجتماعية والاقتصادية للتعديات:

لقد أدى التعدى على البيئة إلى حدوث آثار سيئة على المستوى الاجتماعي والاقتصادى، لأن التعديات تعتبر من الأعباء الزائدة على الإنسان نتيجة لقلة الموارد الطبيعية، وربما نتيجة لانقراضها أو تلفها أو ندرتها بسبب ما يحدث لها فأصبحت لا تؤدى مهمتها التى سخرها الله لها بسبب فعل الإنسان.

فإن إبطاء عملية الإنبات بسبب تلوث الهواء، وإتلاف ساحات شاسعة من الغابات، والقضاء على الثروة السكنية إنما يؤثر على الناحية الاقتصادية والاجتماعية.

هذا بالإضافة إلى الأعباء المترتبة بسبب تكاليف تعقيم الماء، وإنتاج أجهزة التكييف والمرشحات، وأجهزة تعقيم المخلفات الصناعية ونفقات مكافحة الحرائق، وإزالة بقع النفط وغير ذلك من نفقات يتحملها المجتمع من أجل التخلص من أضرارها بقدر الإمكان.

هذا أيضاً بالإضافة إلى أن الأعباء الاقتصادية قد لا يستطيع أن يتحملها الفقراء الذين لا يستطيعون شراء الماء المعبأ صحياً، وبالتالى يضطر إلى الشرب من الماء الملوث فيكون عرضة للإصابة بالأمراض وقد لا يستطيع العلاج لعدم قدرته المادية على ذلك.

---

(1) التلوث وحماية البيئة: مرجع سابق ص١٦٩ وما بعدها.

(وفى ظل المذاهب المادية ومع ضعف الوعى البيئى والاجتماعى وغياب المعيار الأخلاقى. فإن من المشكوك أن تقوم الهيئات فى العالم المتقدم صناعياً لضبط التلوث بصورة حاسمة، وعلى سبيل المثال: ليس من السهل أن تقوم الحكومة بوقف المشروعات الخاصة التى تسبب فى إحداث التلوث البيئى عن النشاط مع ما يترتب على ذلك من تسريح للعمال، وخلق اضطرابات اقتصادية واجتماعية)[1].

وهكذا سيطرت الأشياء المادية على الحياة الاجتماعية والأخلاقية وصار اهتمام الإنسان منصباً على الاستهلاك الذى يشبع قدرا أكبر من الرغبات الحسية، وحل الوعى الاستهلاكى محل الوعى الاجتماعى والبيئى (وأصبحت المذاهب الوضعية تعتمد فى تحقيق أهدافها النفعية على تفريغ الشحنات النفسية لدى الجماهير، واستقطاب الطاقات الفكرية على مجموعة من السلوكيات والشعارات التى تبتعد بالإنسان عن المشكلات الحقيقية للمجتمع. وإيجاد مشكلات وهمية أو واقع مزيف. من ذلك على سبيل المثال: السباق الدائم والحروب الباردة، وإجراء التجارب النووية، ومقولات التفوق العرقى أو العنصرى، وإيجاد حالة من اللامبالاة وعدم الاكتراث بما ينزل بالشعوب المتخلفة صناعيا من كوارث بيئية أو عمليات الإبادة الجماعية)[2].

---

[1] إدوين مانسفيلد، وناريمان بهدافيش علم الاقتصاد ص٦٠٠ هامش رقم ٢ مركز الكتب الأردنى ١٩٨٨م.

[2] نحو نظرية اجتماعية نقدية د/ السيد الحسينى. ص٩٨، دار النهضه العربيه للطباعه والنشر ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، بيروت

ومما يؤكد ذلك ما نراه من إثارة مشكلات واهية يشغلون بها تفكير العامة وغيرهم كالزيادة السكانية والختان وما إلى ذلك دون حل للمشكلات الحقيقية فيتطور الحال من سيئ إلى أسوأ.

ولهذا نجد الحاجة ملحة إلى الوعى الإسلامى وخططه ونظمه لكى ينقذ العالم من المشكلات التى تهدد حياة الإنسان على سطح الأرض، وينقذه مما يعانيه من أزمات ومشكلات اجتماعية ونفسية واقتصادية.

فلقد انتقد كثير من علماء الاجتماع النظم الاجتماعية والتربوية السائدة فى دول العالم الصناعى، فيشير عالم الاجتماع "رايت ميلز" الذى وضح "أن الحياة الأكاديمية أصبحت ضحية التصنيع والتقنية، ولذلك أخفقت فى القيام بعمل تربوى تحررى يمكن أن يقوم به علماء الاجتماع، ويرى "ميلز" أن عملية التحول إلى الوعى الاجتماعى والإحساس بقضايا المجتمع تتطلب إنقاذ الفرد من عمليات التغريب وإخراجه عن دائرة التمركز حول الذات وتجاوز المشكلات الشخصية بحيث يعى ويدرك أنه جزء من كيان اجتماعى الأمر الذى يتيح الفرصة لنمو وعى موضوعى بالظروف الإنسانية)[1].

إن وجود الوعى البيئى وبالأخص ن منظور إسلامى مع رسوخه فى نفس الإنسان يدفعه إلى البيئة على أنها مخلوق مسخر له إذا أحسن التعامل معها وليست عدواً له كما يزعم أصحاب المذاهب الوضعية التى تقول: إن الذى يميز الإنسان على غيره من الكائنات ليس هو القانون الطبيعى -

[1] المرجع السابق: ص١٩٦، ١٩٧

العضوى- وإنما القانون اللاطبيعى أى تمرده على الطبيعة فى صراعه معها للظفر بها بما لا تقدمه طواعية)[1].

فهذا هو حال أصحاب المذاهب المادية حتى أدى صراعهم مع الحية إلى الضغط على البيئة واستنزاف مواردها الأمر الذى انتهى بسببه إلى تولد المشكلات ومعاناتهم فى كيفية الحصول على الحاجات الضرورية من طعام وشراب ومأوى من موارد نقية نظيفة كما خلقها الله عز وجل.

أما الفكر الإسلامى الصحيح فإنه ينظر إلى الكون بما فيه على أنه مسخر له من لدن الحق سبحانه وتعالى لكى يعينه على تحقيق العبادة التى خلق من أجلها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [2].

والعبادة ليست قاصرة على إقامة الشعائر فقط بل تعنى الالتزام بكل الفروض التعبدية، والتقيد بالقيم الإسلامية، والقواعد والأحكام الشرعية فى كل مجالات الحياة، لأن (مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد شعائر، فالجن والإنسان لا يقضون حياتهم فى إقامة الشعائر، والله لا يكلفهم هذا، وهو يكلفهم ألواناً أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم، وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التى يكلفها الجن، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن، من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

---

[1] نظرية القيمة فى الفكر المعاصر: د/ صلاح قنصوة: ص٢٠٠، ط ١٩٨١م - دار الثقافية للطباعة والنشر - القاهرة.

[2] سورة الذاريات: الآيات ٥٦-٥٨.

لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[١]. فى الخلافة فى الأرض، إذاً هى عمل هذا الكائن الإنسانى. وهى تقتضى ألواناً من النشاط الحيوى فى عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكنوناتها، وتحقق إرادة الله فى استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها كما تقتضى الخلافة القيام على شريعة الله فى الأرض لتحقيق المنهج الإلهى الذى يتناسق مع القاموس الكونى العام.. ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التى هى غاية الوجود الإنسانى، أو التى هى وظيفة الإنسان الأولى أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة فى مدلول العبادة قطعاً، وأن حقيقة العبادة تتمثل فى أمرين رئيسيين:

الأول: استقرار معنى العبودية لله فى النفس، أى استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً عبدا يُعبد، وربا يعبد وأن ليس وراء ذلك شئ.

الثانى: هو التوجه إلى الله بكل حركة فى الضمير، وكل حركة فى الجوارح، وكل حركة فى الحياة والتوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله. وبهذا يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد فى سبيل الله، والجهاد فى سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله، كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التى

---

[١] سورة البقرة: من الآية: ٣٠.

خلق الله الجن والإنس لها. وكلها خضوع للقاموس العام الذى يتمثل فى عبودية كل شئ لله دون سواه)[١].

وإذا كان العمل الذى يقوم به الكون المسخر بإرادة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]. هو عمل عظيم بالغ الشأن والأهمية بالنسبة للإنسان، لأنه يزوده بمقومات الحياة، وعوامل البقاء فيعينه على القيام بواجبه لإعمار الأرض وتحقيق الغاية التى خلق من أجلها، فالمحافظة عليه، وحمايته من التعديات التى تعوقه عما خلق له من الأمور الواجبة، وهذا الواجب يقع على مسئوليته وهو من التبعة الملقاة على عاتقه، وهو مكلف بالمحافظة عليها، وجعلها صالحة حتى تؤدى مهمتها ويتعامل معها وفق ما إرادة الله عز وجل. وإلا فإن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه على ذلك إن أحسن وشكر، أو إن جحد وكفر

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٣]، وحتى ينجح الإنسان فى عمارة الأرض وكل ما يحيط به وما يستطيع الوصول إليه من أجل الأعمار، فلابد من مراعاة التعاليم الإسلامية وما أرشدنا إليه الإسلام، حتى يبقى نفعها للإنسان، وإلا ستنقلب عليه، كما قال الله تعالى عن أهل سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ

---

[١] ظلال القرآن: للشهيد سيد قطب جـ٦ ص٣٣٨٨.

[٢] سورة الجاثية: آية ١٣.

[٣] سورة الكهف: آية ٧.

وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۞ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۞ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[١].

الإسلام وحماية البيئة:

تحظى البيئة فى الإسلام بما يحفظها ويبقيها على وجودها بفطرتها ونقاءها، مع الانتفاع بها دون إفساد لخصائصها ومظاهرها، ويجعلها مصانة من الاستنزاف أو الجور أو التعطيل لما هى مسخرة له.

وذلك بما احتوته النصوص الشرعية التى تنص على عمارتها وإبقاءها على صلاحها، والعمل وفق منهج الله عز وجل، حتى ينتفع من سخر الله له البيئة وذللها له باستخلافه فى الأرض ملتزماً بالأمانة التى كلفه الله بها بناء على قبوله لها مستعيناً بخالقه عز وجل وبما رسم له من منهج يسير عليه ابتداء من آدم عليه الصلاة والسلام واستخلافه فى الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

فقد أشارت الآية الكريمة بما تعلمه الملائكة على حسب علمهم بأن الإنسان بما يعتمد على أهوائه ونزعاته، ولا يحسن تصرفاته، ويسعى بالفساد،

---

(١) سورة سبأ: الآيات ١٥-١٧.

(٢) سورة البقرة: آية ٣٠.

ويسفك الدماء طمعاً وأثرة، أو جهلاً بأمانة الاستخلاف إذا لم يكن معه دين يهذب من تصرفاته، ويبصره بمصالحه، ويبين له الرشد من الغي، فلا يفسد ما صلح ولا يخرب ما عمر، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ۞ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1].

<u>*تحريم الشرائع للفساد والإسراف:*</u>

لقد اتفقت الشرائع على تحريم الفساد والإسراف فى الأرض وتداركت رحمة الله تعالى وحكمته للإنسان فى إرسال الرسل ودعوتهم إلى هدايته وإصلاحه وتهذيبه، وحماية ما حوله من شروره وآثامه فقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۞ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ۞ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[3].

وكان مما دعا إليه الرسل أقوامهم النهى عن الإفساد فى الأرض لأن (الفساد هو خروج الشئ عن كونه منتفعاً به، ونقيضه الصلاح وقول ابن عباس والحسن وقتادة والسدى -رضى الله عنهم- إن المراد بالفساد فى الأرض إظهار معصية الله تعالى، وتقريره ما ذكره القفال رحمه الله وهو أن

---

[1] سورة محمد. الآيتان ٢٢-٢٣.

[2] سورة النساء: آية ١٦٥.

[3] سورة الشعراء: الآيتان ٢٠٨-٢٠٩.

إظهار معصية الله تعالى إنما كان إفساداً فى الأرض لأن الشرائع سنن موضوعة بين العباد.

فإذا تمسك بها الخلق زال العدوان، ولزم كل أحد شأنه، فحقنت الدماء وسكنت الفتن، وكان فيه صلاح الأرض وصلاح أهلها، أما إذا تركوا التمسك بالشرائع وأقدم كل أحد على ما يهواه لزم الهرج والمرج والاضطراب ولذلك قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[١]......الآية"[٢].

وبهذا كانت دعوة الرسل عليهم السلام إلى أقوامهم، ومنهم دعوة شعيب عليه الصلاة والسلام فقد نهى قومه عن الإفساد فى الأرض بعد أن أصبحت مهيأة لمصالحهم ذكر القرطبى عن ابن عباس رضى الله عنهما عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾[٣]، كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيباً رسولاً يُعمل فيها بالمعاصى وتُستحل فيها المحارم، وتُسفك فيها الدماء قال: فذلك فسادها. فلما بث الله شعيباً ودعاهم إلى الله صلحت الأرض، وكل نبى بعث إلى قومه فهو صلاحهم"[٤].

ومنهم صالح عليه الصلاة والسلام الذى ذكر قومه بما هم عليه من نعم وافرة، أنعم الله بها عليهم من عناصر طبيعية فى البيئة التى يعيشون فيها سخرها الله لهم، لراحتهم وتفكههم من جنات وعيون، وزروع ونخل، وبيتاً

---

[١] سورة محمد: الآية ٢٢.

[٢] التفسير الكبير للرازى: جـ١ ص٤٤٣، ط١ ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، نشر دار الغد العربى.

[٣] سورة الأعراف: الآية ٨٥.

[٤] الجامع لأحكام القرآن: جـ٧/٢٤٨.

فارهة، وقد استخلفهم الله فيها، ونهاهم عن إفسادها، وعدم إتباع المسرفين والسير على شاكلتهم.

فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1].

وقال تعالى أيضاً: "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۞ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ"[2].

وهذا لوط عليه السلام نهى قومه عن ارتكاب الفواحش والشذوذ، وتركهم ما أحل الله لهم، مما أدى إلى خلل اجتماعى بسبب إصرارهم وعنادهم فما كان جزاءهم إلا التدمير هم والبيئة التى كانوا يعيشون عليها فكان عاليها سافلها، وما ذلك إلا لأنهم كانوا قوماً مجرمين، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ۞ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[3].

وما فعله قوم لوط عليه السلام إنما هو انحراف فى السلوك الإنسانى مما أدى إلى خلل فى البيئة الاجتماعية، وهذا الخلل أدى إلى انتشار مرض "الإيدز" وهو من الأمراض الفتاكة التى انتشرت فى العالم المعاصر، وخاصة فى الدول المتقدمة صناعياً وغيرها، وهو تلوث حيوى خطير، وتكمن خطورة

---

(1) سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(2) سورة الشعراء: الآيات ١٥٠-١٥٢.

(3) سورة الحجر: آية ٧٣،٧٤.

هذا المرض إلى أنه يصيب جهاز المناعة في الإنسان فيصبح فريسة للفيروسات والأمراض التي يسببها تلوث الهواء والماء والتربة إذ تضعف أو تنعدم تماماً قدرة الجسم على مقاومتها.

إن مرض الإيدز يصيب الإنسان بسبب الشذوذ الجنسي والعلاقات الجنسية غير المشروعة، أو من خلال نقل الدم من المصاب بالمرض إلى شخص آخر.

هذا التلوث البيئي ينتج من انحراف سلوك الإنسان في تعامله مع بيئته الطبيعية فإن هذا التلوث الحيوي ينتج من انحراف سلوك الإنسان في تعامله مع بيئته الاجتماعية.

وصدق الله العظيم إذ يقول:﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وهذا موسى عليه السلام فقد طلب الانتفاع من البيئة الطبيعية بالاستسقاء والأكل والشرب مع المحافظة عليها وعدم إفسادها، فقال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٢].

وقد اتفقت جميع الشرائع على تحريم الفساد بنوعيه الحسي والمعنى جليله ودقيقه، وقد اجتمع نوعي الإفساد في شخصية "الأخنس بن شريعه" الذي

---

[١] سورة البقرة: آية ٢٢٣.

[٢] سورة البقرة: آية ٦٠.

جاء إلى رسول الله ﷺ مبطناً الكفر مظهراً الإسلام ويسعى بالفساد، أو هي شخصية المنافق عموماً الذى يخبرنا الحق سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾[1].

(وهذا المنافق ليس همه إلا الفساد فى الأرض، وإهلاك الحرث وهو محل نماء الزروع والثمار، والنسل وهو نتاج الحيوانات اللذين لا قوام للناس إلا بهما"[2].

كما اتفقت الشرائع على تحريم الإسراف:

والإسراف هو: تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان[3].

وهو مأخوذ من السرقة دويبة تأكل الورق، سمي بذلك لقصور معنى الإسراف منه"[4].

والإسراف وجه من وجوه الإفساد ولون من ألوانه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[5].

---

(1) سورة البقرة: الآيتان ٢٠٤-٢٠٥.

(2) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير جـ١ ٢٤٦.

(3) البحر المحيط: لأبى حيان الأندلسى جـ٣ ص٤٦٩، ط٢ طبعة دار الكتاب الإسلامى.

(4) المفردات فى غريب القرآن: الراغب الأصفهانى: ص٢٣٠، طبعة دار المعرفة.

(5) سورة الإسراء: آية ١٦.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾(١)، أى المتجاوزين الحد فى أمورهم. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَات ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾(٢).

تحريم الإسلام للفساد فى الأرض:

يحرم الإسلام كل أسباب الفساد، لأنه لا يؤدى إلى حياة طيبة، ويصد عن ذكر الله، ويلحق الضرر بحياة الإنسان وبالكائنات الحية، ويعوق البيئة عن أداء مهمتها التى خلقها الله من أجلها كما مر فى تلوث الهواء، والماء، والتربة، وآثاره على الإنسان.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣).

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى أحسن إلى الإنسان، فعلى الإنسان أن يحسن كما أحسن الله إليه. قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّار الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(٤).

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره "أى استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربت التى

---

(١) سورة غافر: من الآية ٤٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٣) سورة القصص: من الآية ٧٧.

(٤) سورة القصص: من الآية ٧٧.

يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة، "ولا تنسى نصيبك من الدنيا" أى ما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً فآن كل ذى حق حقه "وأحسن كما أحسن الله إليك" أى أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به فى الأرض وتسئ إلى خلق الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وحال المفسدين يختلف عن حال الذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا "أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذى لا يحول ولا يزول جعلها لعبادة المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً فى الأرض أى ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم"[3].

ولهذا يوبخ الحق سبحانه وتعالى من لا حسن عندهم ولا شعور فلا يميزوا بين الصالح والطالح ولا بين التقى والفاجر فقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[4].

---

[1] تفسير القرآن العظيم: جـ٣، ص٣٩٩.

[2] سورة القصص: آية ٨٣.

[3] المرجع السابق: جـ٣، ص٤٠٢.

[4] سورة ص: آية ٢٨.

وهذه هى نظرة أصحاب الفلسفة المادية الذين لا يهمهم إلا أنفسهم فلا يقيسون أعمالهم ولا يزنونها بميزان العدل والحق "إن خلق السموات والأرض وما بينهما لم يكن باطلاً، ولم يقم على الباطل، إنما كان حقاً وقام على الحق، ومن هذا الحق الكبير تتفرع سائر الحقوق، الحق فى الخلافة فى الأرض والحق فى الحكم بين الخلق، والحق فى تقويم مشاعر الناس وأعمالهم، فلا يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض، ولا يكون وزن المتقين كوزن الفجار، والحق الذى جاء به الكتاب المبارك، الذى أنزله الله ليتدبروا آياته، وليتذكر أصحاب العقول ما ينبغى أن يتذكروه من هذه الحقائق الأصيلة، التى لا يتصورها الكافرون، لأن فطرتهم لا تتصل بالحق الأصيل فى بناء هذا الكون، ومن ثم يسوء ظنهم بربهم ولا يدركون من أصالة الحق شيئا"[1].

ولهذا يجب على أولياء المسلمين خاصة والمسلمون عامة ألا يقفوا مكتوفى الأيدى مع هؤلاء المتبلدين، والذين لا هم لهم إلا تحقيق رغباتهم عندما يسيئون إلى البيئة فإنهم يسيئون إلى الإنسانية عموماً لأنه "كلما عظم شرف الشئ عظم خطره... وإن الشئ إذا عظم قدره شدد فيه وكثرت شروطه"[2].

وهذه القاعدة الفقهية لابد أن يتعامل بها ولاة الأمور مع الذين يسيئون فى تعاملهم مع البيئة التى سخرها الله للناس ويطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن

---

[1] فى ظلال القرآن: سيد قطب: جـ٥، ص٣٠١٩.

[2] الفروق: للقرافى جـ٣، ص١٤٤، ٢٦٢.

يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وهذه الآية وإن اختلف فى سبب نزولها، ويذهب البعض إلى أن النص يطبق على الكفر وقطع الطريق وإخافة السبيل، والذين يحاربون الله ورسوله وحرب الله ورسوله إنما هو حرب فى الشريعة وإفساد الأرض.

يقول الإمام ابن كثير: وهى صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل، وكذا الإفساد فى الأرض يطلق على أنواع من الشر"[2].

والذى يعنينا بهذا الاستشهاد هو أنه يجب على المسئولين أن يحاربوا الفساد وكل ما يترتب عليه من تدمير للبيئة، واستغلالها فيما حرمه الله عز وجل عن طريقة زراعة المخدرات والإتجار فيها، أو دفن النفايات النووية فى جوفها أو إلقائها فى المياه، وكل ما يلوث البيئة ويفسدها مما يترتب عليه تدمير الفرد والمجتمع عضوياً وعقلياً.

وهذا مما يدل على اهتمام الإسلام اهتماماً بالغاً بحماية البيته والإنسان.

لذا لابد من أخذ الإجراءات اللازمة لردع كل من تسول له نفسه بالتعدى على حرمة البيئة، لأن فى ذلك رعاية لمصلحة المسلمين وكما يقال: درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، واستناداً إلى المصلحة العامة وهى "أن تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة.

وأن مصلحة الرعية فى حفظ مقاصد الشريعة، وعلى رأسها الضروريات الخمس وهى: "حفظ الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال"[3].

---

(1) سورة المائدة: آية ٣٣.

(2) تفسير القرآن العظيم: جـ٢ ص٤٧،٤٨.

(3) الموافقات فى أصول الأحكام للشاطبى جـ٤ ص٤ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده – بالقاهرة.

وقال الإمام الشاطبى أيضاً: كل من ابتغى فى تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها فعمله فى المناقضة باطل، فمن ابتغى فى التكاليف ما لم تشرع له فعمله باطل"[1].

ولهذا يقول: أبو يوسف "وليس يبقى على الفساد شئ، ولن يقل مع الصلاح شئ"[2].

فالفساد مثل النار لا تبقى ولا تذر ولا تفرق بين غال ورخيص.

تحريم الإسلام للإسراف:

لقد حرف الإسلام الإسراف بكل أنواعه، فالإسراف فى الطعام والشراب يقول عنه القرآن الكريم: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[3].

وفى الإنفاق يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[4].

ويقول سبحانه وتعالى عن الإسراف عموماً: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[5].

كما حرم الإسلام الإسراف فى الموارد الطبيعية حتى ولو استخدمت فى العبادة.

---

[1] المرجع السابق: جـ٢ ص٢٤٤.

[2] كتاب الخراج لأبى يوسف: ص١٠٥، طبعة دار المعرفة.

[3] سورة الأعراف: من الآية ٣١.

[4] سورة الإسراء: آية ٢٩.

[5] سورة الإسراء: آية ٢٧.

ففي الحديث أن النبي ﷺ مر بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو يتوضأ فقال رسول الله ﷺ "ما هذا السرف؟ فقال: أفي الوضوء إسراف. قال: نعم، وإن كنت على نهر جار"[1].

وكان رسول الله ﷺ يقتصد في استعمال الماء في وضوئه وغسله فقد "كان النبي ﷺ يتوضأ بالمد، ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد"[2].

ولهذا يقول النبي ﷺ "وقد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه"[3].

كما منع رسول الله ﷺ من الاعتداء الجائر على الصيد والاحتطاب حفاظاً على الموارد الطبيعية.

فقد حرم رسول الله ﷺ الاحتطاب من أشجار المدينة لأنها مناطق رعي للحيوانات.

فقد روى أبو يوسف عن مالك رضي الله عنه أنه بلغه أن النبي ﷺ "أنه حرم عضاة المدينة - شجرها العظيم - وما حولها اثنى عشر ميلاً -جنبها- وحرم الصيد في أربعة أميال حولها. وقال أبو يوسف: قال بعض العلماء: إن تفسير هذا إنما هو لاستبقاء العضاة لأنها رى المواشي من الإبل والبقر والغنم، وإنما كان قوت القوم اللبن، وكانت حاجتهم إلى القوت أفضل من حاجتهم إلى الحطب"[4].

---

(١) رواه ابن ماجة: في كتاب الطهارة - باب ما جاء في القصد في الوضوء رقم ٤٢٥.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الحيض - باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة، حديث رقم ٣٢٥.

(٣) المرجع السابق: كتاب الزكاة - باب فضل التعفف والصبر والقناعة.

(٤) كتاب الخراج: ص١٠٤.

وفى هذا تنظيم للانتفاع بالمباحات ليكون النفع مستمراً ويعطى الفرصة للنمو والكثرة.

وقد اتفق الفقهاء "على أن مياه البحار وما يوجد فيها من ثروات مائية مختلفة وكذلك العيون والأودية، ومساقط المياه، شركة بين الناس ينتفعون بها بشرط عدم الإضرار بالآخرين"[١].

وبتحريم الإسلام للإفساد بكل مظاهره والإسراف بكل أنواعه يدل دلالة واضحة على اهتمام الإسلام بالإنسان وبالبيئة وإبقائها على فطرتها التى خلقها الله تعالى وتجذب الأنظار إلى التأمل والنظر فى ملكوت السموات والأرض وصولاً إلى معرفة الله عز وجل ووحدانيته ومداومة شكره. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

---

[١] المغنى لابن قدامة: جـ٤ ص٩٠،٩١، وانظر بدائع الصنائع للكاسانى جـ٦ ص١٩٣.

[٢] سورة الأعراف: آية ١٨٥.

[٣] سورة الأنعام: آية ٩٩.

أهمية البيئة في الإسلام:

إن تعامل المسلم مع البيئة لابد أن يقوم على أساس من الإيمان بالله عز وجل لأنه يتعامل مع أشياء خلقها الله عز وجل وسخرها له لتحقق الغاية المطلوبة منه وهى عبادة الله عز وجل، فلابد من الالتزام بشريعة الله فى التعامل معها، من حيث الامتثال والطاعة التى تنشأ من منطلق إيمانى بأن الله عز وجل هو الذى يحلل ويحرم، ويأمر وينهى. فهو سبحانه وتعالى له الخلق والأمر. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

"وهذا نوع من بديع صنع الله وجليل قدرته وتفرده بالإيجاد الذى يوجب على العباد توحيده، ويوجب عبادته -ومنها ما نهاهم عنه- من الفساد فى الأرض بوجه من الوجوه قليلاً كان أو كثيراً، ومنه قتل الناس وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم وتغوير أنهارهم"(٢).

إذاً التعامل مع البيئة لم تترك لأعراف الناس يفعلوا ما يحلو لهم مندفعين بدوافع ذاتية ونفعية لغرض المصلحة المادية كما يفعله أصحاب المذاهب والفلسفات المادية.

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ٥٤-٥٦.

(٢) فتح القدير للشوكانى: جـ٢ ص٢١٠، ٢١٣، ط٢، مصطفى البابى الحلبى.

وإنما التعامل مع البيئة إنما هو تكليف من خالقها وخالقنا، ولم يترك سبحانه وتعالى هذا الخلق الكبير بدون أن يعين الإنسان بكيفية التعامل معه.

والالتزام بشرع الله عز وجل في التعامل مع البيئة يعود على الإنسان بالنفع يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾(١).

ويقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾(٢).

ولا يستطيع الإنسان أن يتعامل مع البيئة إلا بتطبيق شرع الله تعالى ومعرفة ما تتميز به البيئة حتى تكون محل اهتمام وعناية للارتباط الوثيق بها ولعدم استغنائه عنها وأن ما يصيبها يصيبه.

ما تتميز به البيئة من خصائص:

أولاً: **انها مسخرة:**

لقد سخر الله سبحانه وتعالى الكون بكل ما فيه من أشياء وظواهر للإنسان قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة الأعراف: آية ٩٦

(٢) سورة النحل: آية ١١٢

(٣) سورة الجاثية: آية ١٣.

وهذا التسخير جعل البيئة بكل ما فيها من مخلوقات طائعة للإنسان ولا يقتصر عملها على تيسير مهمة الإنسان فى عمارتها فقط، وإنما ما تقوم به من مقومات بأمر الله عز وجل -فى حياة الإنسان، فالإنسان لا يستطيع أن يمكث فى الأرض إلا بتوافر الهواء والماء والتربة والمسكن والمأكل والضوء والحرارة، وهو عمل عظيم الشأن بالغ الأهمية.

ثانياً: انها متوازنة:

فكل شئ فى النظام الكونى والبيئى بقدر وكل شئ له عمل، ليتحقق للإنسان الاستمرار فى الحياة إلى أن يشاء الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[1].

ويتآلف النظام البيئى حتى يؤدى دورته فى السلسلة الغذائية التى تكفل استمرار الحياة "فالطاقة تنتقل من النباتات الخضراء إلى الحيوانات آكلة النبات التى تحولها إلى مواد حيوانيه تتغذى عليها الحيوانات اللاحمة، وبعد موت النباتات والحيوانات تقوم الكائنات المفككة وأغلبها من الفطريات والطحالب والبكتريا بتحويل بقاياها إلى مواد غير حية، وتتتابع السلسلة الغذائية ليستمر النظام البيئى فى أداء وظيفته التسخيرية"[2].

وعن التوازن فى النظام الكونى يقول الحق تبارك وتعالى "الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل

---

[1] سورة القمر: آية ٤٩،٥٠.

[2] التلوث وحماية البيئة: ص٨.

ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير"[1].

وعن التوازن في المجموعة الشمسية يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2].

وعن توازن الأرض في إطار هذا التوازن يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۞ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾[3].

وعن الماء الذى هو عنصر الحياة يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۞ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾[4].

---

(1) سورة الملك: آية ٣،٤.

(2) سورة يس: ٣٧-٤٠.

(3) سورة الحجر: آية ١٩،٢٠.

(4) سورة المؤمنون: الآيات ١٨-٢١.

إن هذا يدل على توازن النظام الكونى والبيئى بمنتهى الغاية والدقة والجمال ويدل دلالة قاطعة على عظمة الحق جل جلاله وعلمه وهيمنته على كل شئ خلقه فقدره تقديرا.

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير ﴿ إنا كل شئ خلقناه بقدر﴾ مثل قوله: ﴿وخلق كل شئ فقدره تقديرا﴾ وقوله: ﴿سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى. والذى قدر فهدى﴾.

أى قدر قدراً وهدى الخلاق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه بالأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل تبرمها"[1].

ثالثاً. غناؤها بالأشياء والظواهر التى لا تكاد تقع تحت حصر ولم يكشف عنها العلم البشرى إلا القليل.

هذه المسخرات منها ما هو ظاهر مشهود، ومنها ما هو خفى على كثير من الناس.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[2].

"والمعنى فى هذه الآية التنبيه على آيات الله الموجودة فى أنواع مخلوقاته -وقد أحال إلى الآيات المنصوبة لمن فكر واعتبر كالدواب والطير

---

[1] تفسير القرآن العظيم: جـ٤ ص٢٦٧.

[2] سورة الأنعام: آية ٣٨.

التى قد حصرت جميع الحيوان، وهى أمم أى جماعات مماثلة للناس فى الخلق والرزق والحياة والموت والحشر"[1].

كما أن هناك مسخرات تسهم فى نفع الإنسان بينما يجهل الإنسان وجودها أو قد يجهل وظيفتها. أو قد يشمئز منها ويخاف مع أنها من مخلوقات الله ولحكمة خلقها. لأن "هناك مسخرات تضر بالإنسان إذا حاول استخدامها استخداماً مباشراً مثل بعض الطيور والحشرات التى تقاوم الآفات الزراعية مثل الذئاب، وهى من الحيوانات التى تؤذى الإنسان ولكن -مع ذلك- سخرها الله له، فالذئاب تفترس الحيوانات المريضة فى الحقول الزراعية، وبذلك تمنع انتشار الأمراض والأوبئة التى يتسبب عنها التلوث المادى للحاصلات الزراعية أو التلوث العضوى للإنسان، ولذلك عندما لجأ الأهالى فى بعض المناطق فى الولايات المتحدة الأمريكية إلى قتل الذئاب انتشرت الأمراض وأصيبت البيئة بالتلوث"[2].

كما تؤدى الطيور والحيوانات والقوارض عملاً هاماً فى حماية البيئة من التلوث أى أنها تقوم -فضلاً عن كونها من المكونات الأساسية فى النظام البيئى- بوظيفة العوامل الوقائية للنظام، إذ تخلص النباتات من الحشرات الضارة، وتشكل هذه الحشرات أكثر من ٦٠% من غذاء الزواحف.. لقد خلق الله -جلت قدرته- لكل نوع من أنواع الكائنات الحية عدداً من الأعداء

---

[1] المحرر الوجيز/ ابن عطية الأندلسى: جـ٥ ص١٩٢.

[2] التلوث وحماية البيئة: ص٢٥٢.

الطبيعيين يتسلط عليه لكي يتوقف تكاثره عن "القدر) الذى يتوقف عليه توازن النظام البيئى، ولم يستفد الإنسان من هذه الظاهرة إلا مؤخراً"[١].

فعلى الإنسان أن يعتبر، ويعلم بأن الله لم يخلق شيئاً عبثاً، وإن كـــان يجهل الحكمة من خلقها.

فالكلاب أمة من الأمم، وعليها يقاس جميع الحيوانات والحشرات والنباتات ولاسيما المؤذى منها للناس.

فيقول الرسول ﷺ "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها الأسود البهيم"[٢].

ولعل الحكمة من ذلك أنه ﷺ "كره إفناء أمة من الأمم وإعدام جيل من الخلق حتى يأتي عليه كله. فلا يبقى منه باقية. لأنه ما من خلق لله تعالى إلا وفيه نوع من الحكمة، وضرب من المصلحة"[٣].

ومن هذه المخلوقات والكائنات الدقيقة التى تساهم مساهمة فعالة فـــى إنتاج الطعام والشراب والملبس، فإن منها ما يعمل على تثبيت النيتروجين فى النباتات البقولية، وفى تحليل بقايا الكائنات الميتة، وزيادة خصوبة التربة، وتقوم الحشرات بعملية تلقيح النباتات".

رابعاً: انها متاع ونعمة:

فمن البيئة يتناول الإنسان ما فيها من نعم يتنعم بها ويسد بها حاجتـــه ومقومات حياته بالسعى والنشاط، وكذلك ينعم بما فيها كل المخلوقات الأليفـــة

---

[١] المرجع السابق نفس الصفحة.

[٢] سنن أبو داود: كتاب الصيد - باب اتخاذ الكلب للصيد وغيره: رقم ٢٨٤٥، طبعة دار الفكر.

[٣] معالم السنن أبو سليمان الخطابى: جـ٤ ص١٣٢، طبعة مكتبة السنة المحمدية.

وغيرها. قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۞ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات لِّأُوْلِي النُّهَى﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ۞ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[3] .

خامساً: مظاهر الجمال:

مما تمتاز به البيئة المظاهر الجميلة التى تدل على الإبداع والأحكام ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[4].

وهذه المناظر والمظاهر الجميلة إنما يتمتع بها الإنسان فضلاً زائداً عن حاجته تستدعى من الإنسان أن يحافظ عليها ويشكر المنعم على ما حباه

---

(1) سورة عبس: الآيات ٢٤-٣٢.

(2) سورة طه: الآية ٥٣،٥٤.

(3) سورة النحل: ٨٠-٨١.

(4) سورة النمل: من الآية ٨٨.

بها ويلفت القرآن الكريم النظر إلى هذه الأشياء ليركز انتباهه بالتأمل والتفكر في آيات الله. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[2].

وقال تعالى ممتناً على عباده بالمنفعة والجمال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

هذه وغيرها من الآيات التي يمتن الله بها على عباده فسبحانه من رب خالق كريم رءوف رحيم.

---

(1) سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١.

(2) سورة النازعات: ٢٧-٣٣.

(3) سورة النحل: ٥-٨.

ولاشك أن هذه المميزات التى تتمتع بها البيئة والنظام الكونى تستدعى من الإنسان. أن يحافظ على فطرة البيئة، وأن يهتم بها، ويصونها من العبث والفساد، وذلك عن طريق الاستثمار بما ينفع مادام حياً، فلقد حث رسول الله ﷺ المسلم بأن يكون محافظاً على البيئة مستثمراً لها ولو فى آخر لحظة من حياته.

فقال ﷺ "إن قامت الساعة وبيد أحكم نسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[1].

كما حذر رسول الله ﷺ من قتل الحيوان عبثاً دون فائدة.

فقال ﷺ "من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله عز وجل يوم القيامة منه. يقول يا رب إن فلاناً قتلنى عبثاً ولم يقتلنى [illegible]"[2]

وبهذا يجب على الإنسان أن يحترم البيئة ويصونها ويسعى إلى تحسينها فإن هذا من باب الشكر والتقدير بدلاً من الإهمال والتفريط أو الإفراط فيها.

فقد أرشد الله سبحانه وتعالى آل داود عليهم الصلاة والسلام الذى سخر لهم الجن والريح وعناصر البيئة إلى تعهد ذلك بالعمل الذى يصون هذا التسخير، ويكفل الاستمرار والمنفعة، وعده من قبيل تقدير النعمة واحترام البيئة. إذ قال سبحانه وتعالى "ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحدي. أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا إنى بما

---

[1] مسند الإمام أحمد: جـ٣ ص١٩١، طبعة دار الأنصار.

[2] سنن النسائى: كتاب الصيد والذبائح، باب من قتل عصفوراً بغير حقها، طبعة دار الكتب العلمية.

تعملون بصير، ثم ختم الإشارة بهذا التسخير بالشكر لله عز وجل "اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور"[1].

الترغيب فى حماية البيئة:

لقد استخدم الإسلام أسلوب الترغيب لحماية البيئة وعمارتها ليكون ذلك حافزاً على اتساع الرقعة الزراعية مما يعود على المسلمين بالوفرة والغنى، ولم يكن ذلك قولاً فقط وإنما بالعمل والتنفيذ.

فقد قال ﷺ "من أحيا أرضاً ميتة فهى له"[2].

والإحياء إنما هو إعمار الأرض لا يملكها أحد بالسقى والزرع أو الغرس والبناء.

ويؤكد هذا المعنى أيضاً قوله ﷺ "من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها"[3].

كما شرع الإسلام الجزاء الأخروى.

وهو ما أعده الله تعالى لعباده الطائعين من الثواب فى الآخرة، فقد يفلت الإنسان من عقوبته فى الدنيا، ولكنه لا ينجو من العذاب يوم القيامة.

ومما يدل على ذلك الترغيب فى غرس الأشجار، وأنها صدقة جارية ما أكل منها إنسان أو بهيمة أو طير، والوعد بالثواب لمن اعتنى بها حتى تؤدى مهمتها بإذن الله.

---

(1) الثروة فى ظل الإسلام: البهى الخولى: ص٢-٣، والآية من سورة سبأ: من الآية ١٠-١٣

(2) رواه الإمام مالك فى الموطأ: كتاب الأقضية - باب القضاء فى عمارة الموات.

(3) صحيح البخارى. تاب المزارعة - باب من أحيا أرضاً مواتاً

فقال الرسول ﷺ "ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة"[1].

وقد اكتشف العلماء أهمية غرس الأشجار وما تؤديه من خدمة جليلة للإنسان وللبيئة.

فلقد "ثبت أن الأشجار والأحزمة الخضراء التى خلقها الله تؤدى عملاً بالغ الأهمية فى حفظ توازن النظام البيئى، إذ تسهم فى عملية تأين الهواء.

فهى تزيد من نسبة الأيونات السالبة بمعدل يزيد عن ثلاثة أضعاف معدل التأمين فى الأماكن الجرداء، وتنعكس زيادة الأيونات السالبة فى الهواء وبصورة إيجابية على كل أنشطة الحيوان والإنسان وبوجه خاص على القدرة على مقاومة المرض، وكذلك تفرز الأشجار من مواد ذات تأثير قاتل أو مثبط للبكتريا والفيروسات، والغابات الكثيفة تقلل من سرعة الرياح، الأمر الذى يؤدى إلى ترسب الغبار، كما أن الغابات تمتص نسبة كبيرة من الغازات الضارة بالبيئة إما من الهواء مباشرة أو بعد ذوبانها فى مياه الأمطار وتمثلها "وهو تحويل المواد الضارة إلى عناصر غير ضارة" وهكذا تمنع وصولها إلى التربة أو إلى الكائنات الحية، وقد وجد أن الأشجار تمتص أكثر من ٦٠% من كمية غاز ثانى أكسيد الكربون، وأن الهكتار الواحد من الغابات ينقى ثمانية عشر مليوناً من الأمتار المكعبة من الهواء الجوى سنوياً"[2].

---

[1] صحيح مسلم: كتاب المساقاة – باب فضل الغرس والزرع، حديث رقم ١٥٥٢.

[2] التلوث وحماية البيئة: ص٧٤–٨٠.

وهذا يدل على سبق الإسلام فى مجال حماية البيئة على غيره من النظم والفلسفات والمذاهب المادية.

كما رغب الإسلام فى الرحمة بالحيوانات والشفقة عليها، وفى احتساب الأجر فى حمايتها من الهلاك.

فقد قال رسول الله ﷺ "بينما رجل مشى فاشتد عليه العطش. فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له. قالوا يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً؟ قال: فى كل كبد رطبة أجر"[1].

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: "كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة (ضرب من الطير) معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها"[2].

فهل هناك رفق أعظم من هذا، وأين منظمات حقوق الإنسان لا الحيوان الآن، مع تشدقهم بالحرية والديمقراطية.

---

[1] صحيح البخارى: كتاب المساقاه - باب فضل سقى الماء جـ٣ ص٧٧.

[2] سنن أبو داود كتاب الجهاد - باب كراهيته حرق العدو رقم ٢٦٧٥، طبعة دار الفكر.

الترهيب من الاعتداء على البيئة:

لقد شرع الإسلام عقوبات لردع الفساد والمفسدين حتى تنتظم الحياة ويتحقق النفع.

وهذه العقوبة الدنيوية إنما هى: أذى فى الظاهر شرع لدفع المفاسد حقيقته مصلحة تدفع الفساد"[1].

ومن تلك الأحكام التى تناولتها العقوبة الدنيوية، عقوبة الفساد فى الأرض وقد سبق الحديث عنها فى محاربة الفساد.

ولكنى أود أن أذكر رأى الإمام الشوكانى فى ذلك لما له من الأهمية. والعقوبة الصارمة لمحاربة الفساد هى متمثلة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

فقد قال الإمام الشوكانى "اختلف فى هذا الفساد المذكور فى هذه الآية ماذا هو؟ فقيل الشرك، وقيل قطع الطريق، وظاهر النظم القرآنى أنه ما يصدق عليه أنه فساد فى الأرض، فالشرك فساد فى الأرض. والبغى على عباد الله بغير حق فساد فى الأرض، وهدم البنيان وقطع الأشجار وتغوير الأنهار فساد فى الأرض فعرف بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد فى الأرض"[3].

---

[1] العقوبة: للشيخ محمد أبو زهرة: ص٧، طبعة دار الفكر العربى.

[2] سورة المائدة: ٣٣.

[3] فتح القدير: جـ٢ ص٣٣، ط٢، مصطفى البابى الحلبى.

إذن الآية تبقى على عمومها فيما يهدد المصالح كما صرح به الإمام الشوكاني.

وما من شك فى أن إهلاك الحرث والنسل وتلويث المياه بالصرف الصحي، وحرق الغابات، والإبادة الجماعية للبشر، وتلويث البحار بالنفط والإسراف فى الصيد والرعي، ودفن النفايات النووية، واستخدام المبيدات وغير ذلك من الملوثات لهو من أعظم الفساد.

ومن العقوبات الدنيوية التعزيز الذى يمكن أن يوقعه ولى الأمر -أو من يقوم مقامه- تأديباً حماية لمصالح المسلمين المتعلقة بموارد البيئة ومقوماتها بما يكف العابثين والمسرفين والمفسدين على وجه الاستصلاح والزجر[1].

ومن العقوبات أن يتذوق الناس جزاء فسادهم من الله عز وجل كما قال تعالى "ليذيقهم بعض الذى عملوا" أى "من الشر والفساد، حينما يكتوون بناره ويتألمون لما يصيبهم منه "لعلهم يرجعون" فيعزمون على مقاومة الفساد ويرجعون إلى الله وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم"[2].

الترهيب بالعقوبات الأخروية:

لقد استخدم الإسلام أسلوب الترهيب والوعيد لزجر كل من تسول له نفسه بالاعتداء على البيئة ومظاهرها حفاظاً على النباتات والأشجار والمسطحات الخضراء ومن ذلك الترهيب والوعيد بالنار.

فقد قال ﷺ "من قطع سدرة صوب الله رأسه فى النار"[3].

---

(1) الأحكام السلطانية: للماوردى: ص٢٣٦، ط٢ مصطفى البابى الحلبى.

(2) فى ظلال القرآن: للشهيد سيد قطب: جـ٥ ص٢٧٧٣، فى تفسيره لسورة الروم: آية ٤١.

(3) سنن أبو داود: كتاب الأدب - باب قطع السدر رقم ٥٢٣٩.

قال أبو داود راوى الحديث مبيناً معناه لما سئل عنه "هـذا الحديث مختصر" يعنى: من قطع سدرة فى فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه فى النار"[١].

والسدر المقصود به هو ما نبت فى البر قاله الأصمعى[٢].

الترهيب من تعذيب الحيوانات وتجويعها، وإرهاقها بما لا تطيق أو التسبب فى فنائها.

فقد قال رسول الله ﷺ "دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض"[٣].

كما أن رسول الله ﷺ "دخل حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبى ﷺ حن وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه (الموضع الذى يعرق من قفاه) فسكت. فقال: من رب هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار، فقال لى يا رسول الله، فقال له: أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها، فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه (أى تتعبه)[٤].

وفى حديث آخر أن رسول الله ﷺ رأى قرية نمل قد أحرقت فقال: من أحرق هذه؟ قلنا نحن، قال: إنه لا ينبغى أن يعذب بعذب النار إلا رب النار"[٥].

---

[١] السنن: جـ٤ ص٣٦١

[٢] معالم السنن للخطابى: جـ٨ ص١٠٠.

[٣] صحيح البخارى: كتاب بدء الخلق: باب إذا وقع الذباب فى شراب أحدكم: جـ٤ ص١٠٠.

[٤] سنن أبى داود: فى كتاب الجهاد - باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم رقم ٢٥٤٩.

[٥] سنن أبو داود: كتاب الجهاد - باب كراهية حرق العدو بالنار رقم ٢٦٧٥.

هذه هى تعاليم الإسلام ومبادئه، المستمدة من كتاب الله عز وجل وسنن رسوله ﷺ ، والتى لا تتبدل ولا تتغير. والتى تبين للإنسان كيف يتعامل مع البيئة، ويحافظ على فطرتها، وحسن استغلال مواردها، مقدراً لها شاكراً لأنعم الله عز وجل الذى حباه بها.

خاتمة

إلى كل المعنيين بالبيئة، وإلى كل من يهمه الأمر، وإلى الناس جميعاً، أن يتأملوا فى تعاليم الإسلام ومبادئه وقيمه، فسيجدوا فيها ما ينقذهم مما هم فيه.

وأن الإسلام يحرم كل أنواع الفساد، وكل مظاهر الإسراف وأنه يحترم البيئة ويقدرها، ويتعامل معها على أنها خلق من الله.

كما أن الإسلام يحث على استصلاح الأرض وعمارتها وحسن استغلالها مما يعود على الإنسان بالخير. وأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئاً عبثاً بدون فائدة، وإنما خلقه لحكمة قد لا نعلمها وقد نعلم بعضاً منها وكل شئ خلقه الحق سبحانه وتعالى بقدر.

وليعلم الناس جميعاً، أن الطبيعة ليست عدواً للإنسان، وإنما هى مسخرة له. تقدم له مقومات الحياة طائعة بأمر ربها. ولولاها ما كان الإنسان.

وعلى البشرية جمعاء.. أن لا ينسوا أن الشئ إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، وينقلب المسخر على المسخر له.

وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

هذا وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين